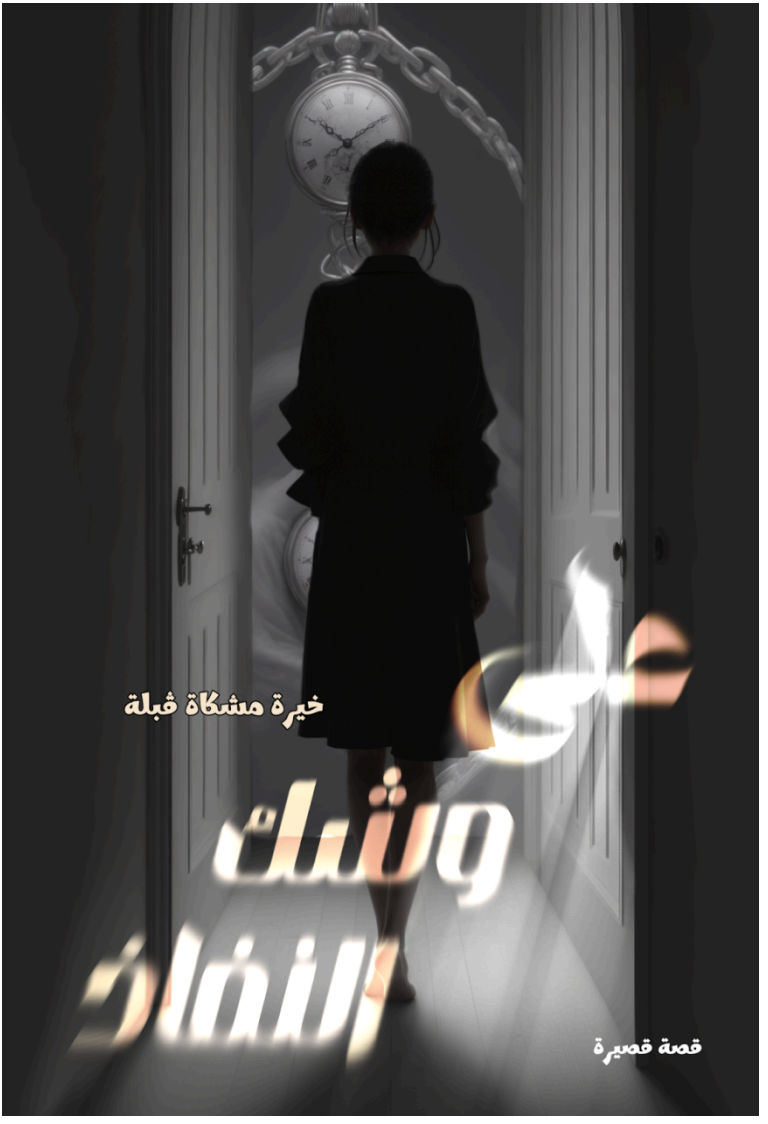

على
وشك
النفاذ
خيرة مشكاة قبلة
قصة قصيرة

# على وشك النفاذ

قصة قصيرة

تأليف : خيرة مشكاة ثبلة

# إهداء

وسط فوضى الظلمات ،سمعت همسات رنانة تحثني على التقدم نحو الأمام . كل همسة أشعلت شرارة صغيرة ، ثم تضافرت معا لتصنع جسرا معبدا بأنوار ساطعة يوصلني إلى بر الأمان .
إلى والديّ العزيزين عاطف و ليليا مع أخواتي الغاليات ، و إلى أستاذتي الدكتورة وفاء صبحي و البرفسورة نعيمة بوسكين ، دون أن أنسى صديقتي الحبيبتين ، زينب و سارة ...
شكرا لكم على دعمكم المستمر لي ، و على اهتمامكم الدائم ...
أدامكم الله لي ضياء ينير دربي .

غريبة هي الدنيا ، تُمَّتعنا فترة ثم تتعبنا فترات ، و كأننا اقترضنا سعادتنا من بنكها ، و ها نحن ذا نرد ما استلفناه مع إضافة الفائدة...

إنها الثانية صباحا ، كالمعتاد لم أتمكن من النوم ، إن عقلي ينبش الذكريات أو الذكريات من تنبش عقلي ... لما فعلت و لما لم أفعل .. لما قلت و لما لم أقل ، أسئلة لم أجد لها مجيبا . أمور حبذا لو قمت بها لأرد الاعتبار لنفسي لا غير ، و الآن فقرة البكاء من تقديم عيوني الذابلة ... الفائدة التي أتحصل عليها هي ... ثقل جفوني و النوم أخيرا

لكن لما ؟، لما لم أستطع النوم؟ ، لقد قمت بطقوس النعاس المعتادة ، إذا لماذا لازلت أحدق إلى سقف الغرفة الذي لا أستطيع رؤيته بسبب الظلمة ، فقط أنا أحفظه جيدا ، إنه في مخيلتي .
لما لا أقدر على تغيير وضعيتي ؟، ظهري تعب من الاستلقاء المستمر أريد أن أتكئ على جانبي الأيمن ، أفكر في ذلك لكني عاجزة عن التنفيذ . رمقتُ أخواتي ، و ها أنا أشعر بالغيرة ، إنهن تغرقن في نوم عميق ، براحة تامة ، أ لهذه الدرجة نفسي تكرهني ؟، أم أنهن لا تكترثن أبدا لما يحدث في هذه الدنيا؟ .
باب الغرفة مغلق على غير المألوف ، متى أُغلق ؟ أنا لم أنم فكيف غفلتُ عن ذلك ؟ ، لقد طُرق ! طُرق للتو ! من يطرق باب غرفة في هذا الوقت المتأخر و الناس نيام ؟.
لكني نهضت ، أتجه نحوه ، أفتحه ، لا يوجد أحد لذا أغلقه .
هلوسات ..سمعت بها من قبل ، إذا لم تنم باكرا يمكن أن يحدث معك شيء كهذا . الطرق عاود الظهور ، أفتح الباب مجددا ، إنها هلوسات .. الموت يقف أمامي الآن !! ، الموت طرق باب غرفة النوم و تنسدل من يده سلسلة حديدية آخرها ساعة فضية متوسطة الحجم لا تصدر صوت دق .
" وقتك أوشك على النفاذ " نطق بصوت أجش ، أنا لا أحس بركبتي ، هل يمكن أن أقول أني سأموت من الرعب !!.." زهور ، من الآن حتى وقت الغروب ، هذي هي المدة التي تملكينها بعدها ستأتين معي" . لا أتكلم ، أنا لا أستطيع إصدار صوت ،

أرتجف فقط أرتجف ، أغمض عيناي ، سيختفي... سيختفي ...افتحهما ، لا لم يرحل ، إنه يحدق فيّ .. كيف وأنا لا أرى فيه سوى الظلام !!؟.
" هل هذا مفهوم ؟" هذا مفهوم... سمعت أبي يقولها قبلا و هو في حالة غضب ، قلت لحظتها لا يوجد أرعب منه ، كنت أهزأ بنفسي ... لا أستطيع البكاء ! لا أريد هدر هذه الثواني ، "إلى أين تريدين الذهاب أولا ؟" ، أستجمع قواي " أريد حل-يب ، شر-ب حليب ساخن " ، أومأ الموت لي و تنحى جانبا حتى أستطيع المرور .
نظرت إلى غرفة والداي الموصدة ، وددت الآن أن أهرع للنوم بين أحضانهما كما كنت أفعل عندما كنت صغيرة ، لكن كيف سأتجرأ ؟، قبل قليل تشاحنت معهما . أمشي في الرواق وقفت بين المطبخ و غرفة المعيشة ، ألقي نظرة على الساعة المعلقة على جدار قاعة الجلوس ، إنها الخامسة و الربع صباحا ! لما يمر الوقت بسرعة ؟! ، اَتجهُ داخل المطبخ و قد كان الموت ينتظرني هناك ، أصرف نظري عنه مسرعة نحو الثلاجة أخرج كيس الحليب بعجل ... أدركت للتو، هذه أول مرة أطبخ فيها الحليب لنفسي .
أحاول الإسراع لكن وقت نضوج الحليب ليس بيدي ، أشعر بالخوف ، أنا لا أغتنم هذه اللحظات !!. أروح إلى غرفة النوم ، في هذا الوقت يفترض أني نائمة هناك ، لكني الآن أقف عند عتبة الباب أتأمل أخواتي و لأول مرة منذ زمن أشعر بالامتنان لوجودهن في حياتي ، لم يسبق لي أن ذرفت دموعا فرحة ، أحس بدفئها على خدي الباسم . فجعني صوت رخيم من خلفي " ما الخطب ؟" ، التفتُّ إليه مجيبة " أنا فقط .. هذا منظر لن يتسنى لي رؤيته و لم يتسنى لي رؤيته من قبل .." ، أومأ الموت برأسه ، لا يقول كلمة بل يشير إلى المطبخ ... أجل ، الحليب .

أبكي بحرقة و لا أُصدر صوتا ، أجلَسَني الموت على الكرسي ، لا أصدق هذا ! إنه يحمل كوبا و يسكب فيه الحليب مع القهوة و يضع السكر ! إنه يمرر الكوب لي . كلمة 'شكرا' ، هل يجب أن تنطقها فاهي الآن ؟ ، هذا ما كانت تقوم به أمي من أجلي دائما ، لكن هل شكرتها ؟ .
متعجبة و أنا أحملق فيه و هو أيضا لا يزيح بصره عني ، صوت القاطعة ، شخص ما استيقظ و أنار الحمام ، ثم أختي الثالثة أراها تدخل المطبخ وهي تفرك عينيها ، استفاقت لتوها من النوم ، تناظرني الآن باستغراب كبير " صباح الخير!!.. ما الأمر ليس من عادتك الاستيقاظ قبلنا ..ما هذا !؟ حضرتي الحليب أيضا !؟!" تضحك فجأة " لكنك مازلت أنانية ، لقد حضرتي الحليب لنفسك لا غير ". لا أقدر على قول شيء ، كيف لها أن تتكلم معي بطريقة عادية ، ألا ترى ما أراه ؟!! . " ما الخطب هل كنت تبكين ؟" ، أبتسمُ و أنا أقف عن مجلسي " أعتذر لم أعتقد أن أحدا سيستيقظ الآن " ، " ههه أنتِ فقط من لا يفعل " ، " اجلسي سأعد لك كوبا " ، " لكني لم أغسل وجهي بعد ، قد نويت شرب الماء فحسب " .
أُجلسها رغما عنها ، أُحَضّر الحليب لها و أنا أراقب الموت من حين إلى حين متخوفة ، هل يمكن أن يأخذ أختي !؟ ، لم أعهد الفكر الذي يجول ببالي الآن ، إذا مات أحد من أهلي ماذا سأفعل؟ و كيف ستكون حالتي !؟ ، " لن أفعل ذلك لقد أتيت من أجلك أنتِ " قال بصوته الرخيم الأجش الذي بدأت أتعود عليه ، لكني تفاجأت ، لقد سمع خواطري ! . سكبتُ الحليب على الطاولة بدلا من الكوب ، أختي تصيح ضاحكة ، تلحق أختي الثانية بنا " ما هذه الضجة !؟" ، ها هي ذي تخرج من فمي أخيرا " صباح الخير " ، "ص-باح الخير !!" ، تهزأ أختي الثالثة بي " لا تتفاجئي إنها تجهز نفسها لتكون عروسا جيدة" . إنهما تضحكان و

تتبسمان و أنا لا أشعر بالسوء ، لم أعرف نفسي ، إني أعانقهما الآن ، لا أريد تركهما ... لا أريد تركهما ... هل يمكنني أن لا أتركهما ...
خارجا ، أمام العمارة نقف . والدي يجهز السيارة ، سيارتنا الحمراء ، كالمعتاد تغطيها بعض الأتربة ، و كالمعتاد تثقل كاهل والدي كل صباح و هو يتفقد محركها ، وهو كالمعتاد يصدر صريرا مُصدعا ، لكن على غير العادة أنا لست منزعجة من الصوت ، بل يشعرني بالدفء . أجلس في المقعد الأمامي للسيارة، كما فعلتُ سنوات من قبل ... شهدتْ مراحلي كلها ، أفضلها و أسوأها ، يوم كنت حديثة التمدرس يتجه بي أبي إلى مقر عمله ، و يوم خروجي من امتحانات شهادة التعليم المتوسط ... و هي الأن ستوصلني إلى الثانوية . لطالما اعتبرتها قطعة حديدية بليدة ، خردة تصدر جلجلة مزعجة تجذب انتباه الجميع لي... نظرات الاحتقار لي .
لكن لما تغير هذا الإحساس الآن ؟ ، هذا الصوت يشعرني بالحياة ، لازلت موجودة ، و هذا يوم عادي . لكن لحظة أنا لا أرى الموت !، ليس بجانبي ، و لا في الخلف مع أخواتي ، و لا أمام السيارة ، هل يمكن أن أشعر بالراحة ؟؟ هل كانت هلوسات حقا!؟...
أوصل والدي أختاي ، وهو الآن متجه إلى ثانويتي ، أُسدل مرآة السيارة فوقي حتى أُعدِّل هندامي ، هناك ... رأيته .. إنه الموت !... لا أستطيع رؤية وجهي ... أرى الموت فقط ... و كأني أسمع صوت دقات الساعة في رأسي . أُغلق المرآة فجأة ، يتساءل أبي " هل أنتِ بخير ؟!" ، " أجل .. بخير " . ها أنا أتأمله ، لا أستطيع أن أشيح بنظري عن والدي ، هذا الرجل الذي ساندني ، تحمّلني ، نصحني ، و كل ما فعلته هو زيادة همومه بمتطلباتي و أحوالي المتقلبة و أخطائي المتكررة ، أسأل لأول مرة " و أنت ؟ كيف حالك ؟" ، كنت أنتظر هذا ، تعبير التعجب

على وجهه ، لأول مرة أيضا أنتبه أنه يبدو ظريفا بهذه الملامح "أنا ، أنا بخير " ابتسم لي و ابتسمت له ، هل كان هذا كبيرا حتى لا يخرج بسهولة ... إنه ليس الوحش الذي خفت منه ، أتساءل ربما .. ربما قليلا فقط ... لو تكلمت معه أكثر ، لو شاركته اهتماماتي أو أخبرته عما أكره ، ربما لكانت الكلمة التي قلتها الآن شيئا صغيرا جدا ، ربما كنت سأقول شيئا أكبر ... أيها الموت هل تسمعني ؟، هل تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء؟؟...

وصلت إلى الثانوية ، سلمت على والدي و تركته في حالة حيرة ، أخبرته أني سأنتظره على الثانية عشر زوالا ليقلني ، وهذا لم يحصل قبلا ... ربما يفكر هل كان هذا بسبب شجار أمس ؟ ربما...

الموت يقف بجانبي و لا أحد يراه سواي ، كيف يمكن أن أجعل ارتباكي يختفي ؟ ، لكن هل هذا جديد علي؟ ، دائما ما بدوت مرتبكة جبانة و محطا للسخرية ...صديقاتي تغيرن ، ليس كل فتاة عرفتها في الابتدائية هي نفسها في المتوسطة و حتما ليست ذاتها في الثانوية . أتمنى لو الموت يتكلم لا أريد التفكير في هذه الأمور ، " فكري و تذكري ، أعملي عقلك فهذه أخر مرة ستفعلين فيها ذلك .." ، لم أخطأ إنك تقرأ أفكاري ، معك حق لن يشتغل عقلي مجددا، في هذه الحال علي أن أفكر في أشياء جيدة ، " هل لعبتي يوما بأحجار الدومينو ؟" تجعلني أضحك ، هل تلعبها أنت ؟ ، " أحب جمع القطع فقط " ، و ماذا تفعل بجمعها ؟ ، " أرصفها خلف بعضها ثم أدفع أولها لتتساقط الواحدة تلو الأخرى " ، إذا هذا ما تسميه لعبا ، " أسميه متعة " ، متعة ...جعلتني أفكر، ما الأشياء التي تمنحني المتعة؟ ، صحيح... قد تخليت عنها، " لماذا ؟" ، لأنها سخيفة و طفولية ، إذا لم أتخلى عنها ما كان أحد ليقبل صداقتي ، كنت سأبقى الغريبة التائهة في عالم الخيال و الأحلام ، " لكن الجميع يغرق في عالم الخيال والأحلام،

هل سبق لك أن رأيت شخصا إذا حلم حلما جميلا ساحرا يستيقظ عابسا متأففا ؟" ، أنا لا أدري، فقط الجميع يتصرف هكذا ، " هل أنت متأكدة ؟ هل تعرفين الجميع ؟" ... صحيح ... كان هناك أشخاص يحبون ما أنا عليه، لكن أنا ! أدركت أني لم أحبذ البقاء معهم بل أردت أن أتغير حتى أبدو رائعة أمام الآخرين ، لكني كالهجين لا أجد انتماء ، أمامي هم ضاحكون مستبشرون بوجودي و وراء ظهري سمعتهم يهزؤون بي مرات و أنا تجاهلت ، لا...كبتُّها في نفسي ثم أذرف الدموع في الليل . يومأ الموت ثم يشير إلى بقعة ما في الساحة ، إنهما بنتان تقفان معا بعيدا عن تجمعات التلاميذ ، إنهما من صادقني من أجل نفسي ، أتجه نحوهما بتردد ماذا لو رفضاني ؟ لكن هل هناك وقت لهذا أنا على وشك أن أموت ! . " مرحبا " تلفظتها بصعوبة ، تناظرنني الآن و أنا أحاول الابتسام ، صاحت رفيدة " زهور!!" ، تعانقني بشدة ، تتحدث ملاك " كيف حالك يا فتاة !" ، " لنقل أني بخير" ... ابتسمت ، ضحكت و أطلقت النكات حتى ، لست في خضم حديث لا أفهم فحواه و لا أعرف ما يجب أن أقول فيه ... لقد استمتعت ...

مر الدوام كالمعتاد ، لم أسطع ترك انطباع جيد كتلميذة نجيبة لمرة واحدة ، في الحقيقة لم أتعب عقلي في استيعاب الدروس فوقتي على وشك النفاذ ، لن أحتاج النهايات أو التعبير المورثي و حتما لن أحتاج إلى نوادر أشعب ... لكني أذكر بوضوح كيف كانت السبورة تمسح باستمرار ، يترك أستاذ كتابة ما فيأتي أستاذ بعده يمسحها، و كم مرة مسح نفس الأستاذ ما كتبه ، كنت أرى وجودي يمحى أمام عيني ... تساءلت حينها ماذا قدمت لنفسي و لغيري ؟ هل تركت شيئا ما يمكن أن يذكر ؟، ثم رأيت ذكرياتي تمحى ... أحسست أني فارغة .. كل ما كنت أملكه هو صورة جيدة لسقف غرفة النوم و لوجهي الباكي الذي لطالما لعنته كلما نظرت إلى انعكاسي في المرآة ... كلها كانت لحظات محفورة

في ذهني إلا أنها لم تعد ذات أهمية ، أفكر ... كيف سأعوضها؟ و أنا لم يبقى معي وقت أو لم يبقى لي وقت ...
أنتظر قدوم أبي ليقلني والموت لا يزال بجانبي ، كان الموت ينظر إلى ساعته الفضية بين الفينة و الأخرى و التي لازلت حتى الآن لا أسمع لها صوت دق ، أو ربما سمعته في حادثة المرآة ، على ذكر ذلك والدي لم يصل بعد و يكاد ينقضي من الساعة الثانية عشر ربعها . فجأة أنا أسمع ذاك الصرير ... مرة أخرى لم أعهد الفكر الذي طل على خاطري ، هذا الصوت يخبرني أنا والدك بخير و أتيت سالما ، بدأت أشعر بدفء يحضن قلبي ، أنظر باتجاه الموت و قد كان يومأ برأسه فقط ، كأنه يوافقني أو يشجع هذا الخاطر ؟ .
لم أدري كيف حتى وصلت إلى البيت ، الوقت للأسف مر بعجل و مع ذلك لقد أحسست به و بثوانيه و بلحظاته ، مجددا لأول مرة فتحت حوارا مع أبي ، و لم أصدق لقد ساعدني أشعب فلولا نوادره التي لم تضحكني في المدرسة لما ضحكت عليها مع والدي ، كانت طريقته في سردها مميزة .
أدخل البيت بعد أن فتحه أبي بالمفتاح ، أخواتي الصغيرات يهرعن إلى حضنه متفحصات محتوى كيس البقالة ، وهو يتسحب من بينهن حتى يضعه في المطبخ . أرى أمي معصبة الرأس بوجه متعب تلحق بهم ، فهمت لما لم تستيقظ صباح اليوم ، الزكام تمكن منها ، حز في نفسي هذا الآن ، وتلوح بين ثنايا ذاكرتي مشاجرتي لها البارحة ، قد زدت على حالها .
تدس أختي ذات السبع سنوات يدها في الكيس من ثقب أحدثته ، تجعل أمي تؤنبها صارخة ، إنها تصرخ ... أسمع صوتها بوضح ... لأول مرة ابتسم ، إنها رغم مرضها بصحة جيدة ، و هي هنا حاضرة أمامي لحما و شحما يغرق في الحنان و الأمومة ، لا تزال حية ترزق ، تذكرت الآن سبب المشاحنة ، تحت عنوان الأصوات الصاخبة ، انزعجت من والدي و سيارته التي تحدث

جلبة تصوب أبصار المتنمرين إلي ، وعتاب أمي اللامتناهي لكل ما أفعله و صراخها العالي ، لكني الآن استحضر ذكرى يوم من الأيام عندما كنت مع رفيدة ناطرين ملاك لتخرج من الفصل ، و أنا أشكو من عتاب أمي ، حينها أخبرتني رفيدة أمنية " أتمنى لو أمي تنهض من القبر و تعاتبني لمرة واحدة سأقبل بذلك فقط أن أتمكن من سماعها .." لم أفهم ما قصدته يومها ، لكني الآن و بطريقة ما أفعل ...

أدخل غرفتنا الفارغة و أوصد الباب ، ها أنا أتكئ عليه ، لا رغبة لي في تناول الطعام كالمعتاد لكني عازمة على أكله ، أغير ثيابي و أسمع أمي تنادي ، اتجهت لطاولة الغداء ، بسيط ككل يوم ، معكرونة حمراء و بعض من السلطة . نحو أمي أتجه ، أعانقها كما كنت أفعل في صغري ، الآن صرت أطول و أكثر قوة ليست هي من تضمني بين ذراعيها أنا من تفعل ،"ما خطبك " تقول ، "أنا آسفة ، آسفة جدا " كل ما يجب أن أقوله الآن ، في حيرة جهزت أمي مجلسي ، أكلت و أكلت حتى شبعت...

أدور في الغرفة كالمجنونة ، اقترب وقت العصر و صرت أسمع دقات الساعة بوضوح شديد كأنها موضوعة نصب أذناي .

" أريد الذهاب إلى مكان آخر" أقول للموت ، يومأ برأسه " إلى أين ؟ " ، "التجول خارجا فقط" ، كان لي ذلك ، أروح بسرعة أطلب الخروج من أمي ، مستغربة و هي تسمح لي بالمغادرة .

تجهزت و خرجت نحو حديقة قريبة من حيِّنا .

أمشي و أراقب الطيور و أحاول أن أستنشق أكبر كمية من النسيم العليل ، لازلت أسمع الدقات التي تزرع فيّ الخوف، لكني لم أهتم لها كما كنت أهتم بالنظر إلى الأشجار ، منها المثمرة ومنها عكس ذلك ، منها النضرة ومنها عكس ذلك ، الموت يتبعني فحسب محدقا إلي لا يزيح أبدا . أرى الطيور تحلق دون خوف في السماء عاليا ، يقص عقلي قصة كما كان يفعل في الأيام الخوالي

، لا أندم لأني لا أكتبها ، إنها مخصصة لي فقط ، بدايتها متعبة لكن نهايتها سعيدة ، ما نوع نهايتي؟ ، لست واثقة...
أرنو العائلات و أطفالهم يلعبون و يبشون ، هذي هي سعادة الحياة. وقفت ، اشتقت إلي شيء ما.. أيام البحر ، هذه الصورة تذكرني بلحظاتنا الصيفية حينما نلعب على الشاطئ ، أريد رؤيته مرة أخيرة . يومأ الموت ، فجأة .. قدماي لا تلامسان الأرض!، لا أصدق إني أحلق!.
خوف دب فيّ ، هل سيأخذني ؟! لكن حتى لو كان كذلك سأستمتع. أمد يداي على مصرعيهما ، لا أفكر هل يراني الناس؟ ، أحاول التمرد على الرهبة التي اجتاحتني ، ها هو ذا البحر... ألامس الرمال ، أسمع غناء الأمواج ، لا يوجد غيري أنا و الموت ، الشمس تدنو إلى المغرب ، أنا سعيدة ..." شكرا لك " قلت له " لم أفعل شيئا " رد . أبتسم متأملة جمال المشهد ، لم أشهد الكثير في حياتي و رغم ذلك كان اليوم حياتي كلها ، " هناك أشخاص رأوا الكثير في دنياهم و هناك آخرون رأوا القليل" قال الموت و تابع " لكن أغلب من يفهم الدنيا هو من رأى القليل أتدرين كيف؟ " أجيب " كلا" يقول " فكما دققت الباب عليكِ تفعل السعادة يمكن أن تفتح الباب و تستقبليها و يمكن أن لا تفعل ، السعادة لا تكمن في كثرة الأشياء التي تملكينها بل تكمن في قدرتك على الاستمتاع بما لديك ، بضحكات أحبائك و بمواساتهم لك ، بعناق تسرقينه من الوالدين ، بقول شكرا لهما و بالسؤال عنهما ، كما كانت تمسح الصبورة كذلك تفعل السعادة بالأسى إذا فتحت لها و كذلك يفعل الأسى إذا استسلمت له ، كتلك الأشجار المثمرة ستكونين إذا زرعت بذرة الثقة و مسامحة النفس و بنفس الطريقة تبنى أسرة صالحة إذا صلح زارعها ، كشعور التحليق عليك عيش يومك خوف من الموت و استمتاع كأنك خالدة، و لا تنسي أن تكوني ممتنة و شاكرة فإن اختفى كل هذا ما من رجعة

و الخاسر الوحيد هو أنت ، الحياة ككوب الحليب إذا ما أردت أضفتي القهوة و إذا ما أردت أضفتي السكر هذا راجع لكِ" .
أحدق في الأفق و قد أراحني كلام الموت ، "أنا جاهزة " قلت له ، يرد " حسنا إذا ... أكملي هذا الحلم و اذهبي لتعيشي حياتك"...

~ تمت بعون الله ~